الإرهابي.. هل هو مريض نفسي؟

د. رائد بني ملحم
أكاديمي أردني

يشير التفسير النفسي (السيكولوجي) لظاهرة العدوان إلى أن جذور كل مظاهر العنف الملاحَظة في الزمن الحاضر، يجب ألا نبحث عنها في المجال الاقتصادي المادي، ولا في ظروف الحياة الاجتماعية، ولكن في علم النفس الفردي فقط، وفي العالم الداخلي الذاتي للشخصية. ومن هنا فإن مشكلة العدوان والعنف المعاصرة لا تبدو لهم مشكلةً اجتماعية، ولكنها مشكلة نفسية (سيكولوجية).

ولا مندوحة عن القول: إن النفوس وما يعتريها من تغيُّرات لها أثرٌ مهمٌّ في اتجاه الفرد نحو الإرهاب، وبخاصة حين تتعرض لبعض الاضطرابات التي ينتج عنها أمراض نفسية، أو تقلبات نفسية حادة.

ولا مندوحة عن القول: إن النفوس وما يعتريها من تغيُّرات لها أثرٌ مهمٌّ في اتجاه الفرد نحو الإرهاب، وبخاصة حين تتعرض لبعض الاضطرابات التي ينتج عنها أمراض نفسية، أو تقلبات نفسية حادة، وهذه الأعراض قد تعود إلى أسباب وراثية، أو ضغوط عصبية مفاجئة؛ نتيجةً لظروف يعيشها الفرد أو مواقفَ يتعرض لها.

وتشير الدراسات الحديثة التي عُنيت بتحليل نفسية الشخص الإرهابيِّ إلى أنه يعاني حاجة ملحَّة إلى الارتباط والاندماج أو التقرب من الآخرين، وهذه الحاجة تنبع من الحرمان الذي عاشه في مرحلة الطفولة، وأدى إلى افتقاره إلى عاطفة المحبة والحنان. ولذلك يلجأ الإرهابي إلى الارتباط ببعض الجماعات السياسية؛ تعويضًا عن الرابطة التي فقدها في طفولته، ويكون على ولاء تامٍّ وخضوع كامل للسلطة التي انتمى إليها، ويكون على أتم استعداد لتنفيذ كل الأوامر الموجهة إليه، مهما كانت درجة خطورتها؛ لإيمانه بقدسيتها.

ويذهب بعض علماء النفس إلى خلاف ذلك؛ فيرون أن شخصية الإرهابي هي شخصية مضادة للمجتمع؛ لأنها متصفة بانعدام الضمير الأخلاقي وقلة الشعور بالذنب عند إخلالها بالقوانين أو قيم المجتمع، وهي شخصية اندفاعية عاجزة عن إرجاء الإشباع والاستفادة من الأخطاء السابقة، مع فِقدان الروابط العاطفية، والسعي إلى مواقف الإثارة؛ إذ إن الإرهابيين يشعرون بالملل بسرعة، مع قدرتهم على تقديم انطباع إيجابي عن أنفسهم إلى الآخرين.

يبرهن على صدق هذا عددٌ من الشواهد؛ فإن الإرهابي يعمل في نطاق سيكولوجيَّةٍ فيها دلائل مختلفة على المرض الذهني، وهذه الدلائل يمكن تشخيصها باتباع الوسائل العلاجية النفسية التقليدية. فالإرهابي قد يتميز بالذكاء واللباقة، وعادة ما يكون مثقفًا إلى حد ما، وهو يرى نفسه من أصحاب الدوافع السامية عندما يتعلق الأمر باشتغاله لأجل قضية مهمَّة. وما يفعله الإرهابي في المرحلة المبكرة من اجتماعات مع الإرهابيين لا يزيد على عرض

وجهات نظر مخالفة للمألوف، ولا يصل إلى أن يكون انغماسًا في مسالكَ نفسيةٍ مرضية. ونلاحظ أنه نادرًا ما يتجه الشخص إلى الإرهاب من تلقاء نفسه، وغالبًا ما يُجذَب إلى الجماعة الإرهابية على مراحل، فقد يبدأ بعمل صغير هامشي في العمليات الإرهابية، كتوزيع المنشورات، ثم يقوم بأعمال المراسلة في مركز النشاط الإرهابي، وقد تقوم بعض الجماعات الإرهابية بمراسمَ خاصة تلقِّنه إياها، وتطلب منه أداءها، وقد تكون هناك اختبارات لمعرفة مدى استعداده وقدرته على المبادرة والولاء.

الشخص الذي يشعر بالعزلة في المجتمع ويسيطر عليه الشعور بالإخفاق، يسهُل انجذابه إلى الجماعات الإرهابية التي لن تكتفيَ بقبوله، بل ستحتضنه، وتلبي مطلبه من الحاجات النفسية والاجتماعية، وتزوده بالوسائل والسبل التي تساعده على الانتقام من المجتمع الذي نبذه.

ويذهب التفسير النفسي لسلوك الإرهابي أن الشخص الذي يمكن انضمامه إلى الجماعات الإرهابية قد تعرَّض لتنكُّر المجتمع له، فسيطر عليه الشعور بالوحدة والعزلة والإخفاق، وهذا الشعور يخالف الطبيعة البشرية التي تميل إلى الاندماج والانتماء إلى الجماعة. ومن هنا فإن الشخص الذي يشعر بالعزلة في المجتمع ويسيطر عليه الشعور بالإخفاق، يسهُل انجذابه إلى هذه الجماعات الإرهابية التي لن تكتفيَ بقبوله، بل ستحتضنه، وتلبي مطلبه من الحاجات النفسية والاجتماعية، وتزوده بالوسائل والسبل التي تساعده على الانتقام من المجتمع الذي نبذه.

الفكرة السائدة عن الأفراد الذين يشاركون في أعمال إرهابية أنهم مرضى نفسيون أو مضطربون عقليًّا، لم تعد تحظى بالقبول في المجتمعات المعاصرة.

إن الفكرة السائدة عن الأفراد الذين يشاركون في أعمال إرهابية أنهم مرضى نفسيون أو مضطربون عقليًّا، هي فكرة لم تعُد تحظى بالقبول في المجتمعات المعاصرة، وبخاصة حين يتعلَّق الشأن بمنفِّذي الهجمات الفردية، من دون أي خلفية دينية أو فكرية أو سياسية، كالأشخاص الذين يقتحمون المدارس أو المساجد أو الكنائس ويطلقون النار على الأطفال أو المدرسين أو المصلين، أو أولئك الذين يقتلون الآخرين كالسفَّاحين.

إن الأفراد الذين ينخرطون في أعمال إرهابية ممنهجة، وينتمون إلى جماعات أو تنظيمات إرهابية، ليسوا مرضى نفسيين أو مختلّين عقليًّا. وعلى مدار سنوات طويلة درس باحثون كثر تلك الحالة، مثل: ريكس هدسون، وجون هورغان، وتوني ليميكس، ليصلَ كلٌّ منهم على حدة، إلى أن تلك الفكرة فقدت مصداقيتها، وأن المقارنات بين الأفراد الذين شاركوا في منظمات أو جماعات إرهابية لم تكشف عن إصابتهم بالمرض النفسي، أو عدم الاتزان العقلي، أي إنهم سواء، وعلى الدرجة نفسها تقريبًا من الوعي فيما يتعلَّق بالإرهاب.

ويشير ستيف تايلور أستاذ علم السيكولوجي، ومؤلف كتاب (العودة إلى الرشد) «Back to Sanity»، إلى أن الفرق الماديَّ بين التكفيريين وغيرهم، على المستوى النفسي السيكولوجي، هو تمكُّن هؤلاء من إيقاف التعاطف كليًّا مع الآخرين؛ إذ لا يشعرون بأي تعاطف مع الأفراد أو المجموعات أو المجتمعات التي يُرهبونها، ولا تؤثِّر فيهم المشاهد الوحشية للقتل أو ممارسته. ويذهب تايلور إلى أن ضياع التمكن من التعاطف هو نتيجة لاعتقاد الفرد العميق بأنه يخدم معتقداتٍ وأهدافًا تُعدُّ هي أولى أولوياته، بغض النظر عن الآخرين، وهو ما تُعمِّقه الجماعات والتنظيمات الإرهابية في نفوس أفرادها، فضلًا عن عزلهم عن العالم الخارجي، وقطع تواصلهم معه، وتصوير المجتمع والآخر في صورة الشرِّ المطلَق، حتى تضمنَ انتساب الأشخاص لها مع الولاء التامِّ، وفِقدانهم لأي صنف من صنوف التعاطف.

> الفرق بين التكفيريين وغيرهم على المستوى السيكولوجي، أنهم لا يشعرون بأي تعاطف مع الأفراد أو المجموعات أو المجتمعات التي يُرهبونها، ولا تؤثِّر فيهم المشاهد الوحشية للقتل أو ممارسته.

إن فرضيات الباحثين التي تشير إلى أن التكفيريين نتاجُ مجتمعات فقيرة ومتخلِّفة، ويعانون الاغترابَ النفسي والاجتماعي، لم تعُد تتمتع بمصداقية عالية، لأن الجماعات الإرهابية أصبحت تستقطب مقاتلين من شتَّى المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وممن يملكون عائلات وأصدقاء ويعيشون حياة كريمة. إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة أنهم يتفاعلون جيدًا مع ذلك المحيط، أو يتقبّلونه على الإطلاق ويشعرون بالانتماء إليه.

بتعبير آخر، ووفقًا لروايات بعض من انخرطوا في جماعات إرهابية، أو بالنظر إلى محتوى رسائلهم لأصدقائهم ومجتمعاتهم لاستقطابهم للالتحاق بالجماعات المتطرفة، يشعر هؤلاء بأن لهم قيمةً ولوجودهم معنى آخرَ حين يقومون بعمل مهم في الجماعة، وأن بإمكان الفرد منهم أن يتزوج ويمتلك ما يشاء ويعيش حياة طبيعية لها كِيان ووِجدان، وتكون حياته جزءًا من ذلك المجتمع الحديث والتوجهات الحديثة حسب معتقداتهم الفكرية. إن الانضمام إلى تلك الجماعات جعلهم يخرجون من دائرة الإحساس بعدم أهميتهم، ليجدوا أنفسهم جزءًا من جماعة لديها المال والسلاح والرجال، ويخشاها العالم نتيجةَ قوتها ودمويتها، مع قناعتهم أنهم جماعة تشارك في إرساخ قيم العدالة والكرامة والرحمة، وتقضي على الفاسدين والمفسدين!

> إن الفرضيات التي تشير إلى أن التكفيريين نتاج مجتمعات فقيرة ومتخلّفة، ويعانون من الاغتراب السيكولوجي والاجتماعي، لم تعد تتمتع بمصداقية عالية، لأن الجماعات الإرهابية أصبحت تستقطب مقاتلين من شتى المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وممن يملكون عائلات وأصدقاء ويعيشون حياة كريمة.

أما في مجتمعاتنا العربية فإن الواقع الاجتماعي والتعليمي والثقافي في بلدان كثيرة يعزِّز الجدل الفكري والمذهبي، والفكر الأحادي الإقصائي، وفكرة الحكم على الآخرين بالكفر أو النفاق، وأن مصيرهم الجنة أو النار! ولا يخفى ما يهبه ذلك للفرد من الإحساس بالسلطة.

كل ذلك يمنح فكرة الانضمام إلى صفوف جماعة تقيم الدنيا وتقعدها باسم الدين جاذبيةً خاصة، فضلًا عن بلوغ الحياة الآخرة بأعظم شرف وهو الشهادة.

وإن ذلك يقودنا إلى خطورة ما يتعرَّض له هؤلاء من عملية غسل الأدمغة، ولاسيما المراهقين منهم، ممن لا يجدون للعائلة أو الأصحاب أو الحياة بأكملها معنًى حقيقيًّا. فالمراهَقة مرحلة حرجة، يشتدُّ فيها إلحاح الاحتياج إلى الشعور بالانتماء والهوية، وهكذا يجد المراهقون - وغيرهم ممن يشعرون بالضياع - في العيش المشترك مع الجماعة أثرًا مبهرًا وجذابًا، فالانتماء إلى جماعة يساعد على تخفيف شعورهم بالانفصال ويعزز هويتهم.

وأخيرًا، إننا بمجرد أن نقبل فكرة أن الإرهابيين أناسٌ طبيعيون، ليسوا مجانين أو مرضى نفسيين، وأنهم لا يسعَون إلى الانتقام الشخصي، وليس لديهم الرغبة في الانتحار ابتداء، وأن الإرهاب ليس متلازمةً تكمن أسبابها في الفقر أو سوء التعليم... بمجرد أن نقبل هذه الأفكار يمكننا تفكيك مفهوم الإرهاب، والتعامل معه بواقعية ناجعة.